لا تطبعي شيئا

كنت قد طفت وأختي على بعض المطابع التي قرأت عناوينها في دليل التلفون، وأدركت أن ما معي لا يكفي وليس من ناشر يغامر بمشاركتي في التكاليف والأرباح. كم كنت جاهلة في شؤون المال، كنت أحسب أن من واجب الأديب أن يكتب، ويكتب شيئا جيدا، فيجد الأبواب مفتوحة لديه، يجد الناقد الجيد الذي يروّج لأدبه، والدور التي تحمل عنه مهمة النشر والتوزيع. أما أن يطوف دلاّلا متجولا بسلعته، وأما أن يهرق السنوات من عمره ليتكفل أمره بنفسه، وأما أن يختنق أدبه في الأدراج، فهذا ما لم يخطر لي على بال.. كان خاطر يلحّ عليّ وأنا أعود واهية القوى أكاد ألفظ أنفاسي، ان معنى هذا أن مهنة الأدب لا يستطيع ممارستها الاّ من يملك المال للقيام بأعبائها. انها ترف للأثرياء، أما أبناء الشعب لا يمكن لهم أن يكتبوا ولا يمكن لهم أن يقرأوا مايُكتب،. ومعنى هذا أن الشعب ومعاناته لايمكن أن يصلا الى أسماع أحد!..

حدّثت عفيف بالأمر في أصيل اليوم التالي، وأنا أناوله نص الرواية فقال:

–لا تطبعي شيئا دون أن تطلعيني عليه، ان ما ينشر يصبح ملك الشعب، ولا يمكن للإنسان أن يستردّه..

كانت أختي ترافقني، كنت مرغمة لأفعل ذلك بالرغم من لهفتي للقائه وحدي حتى لا يثير غيابي تساؤل أحد في البيت.. ان الإخوة والأهل كثيرا ما يفسدون الأمور بحماقاتهم وتدخلاتهم، كنت أريد أن يبلغ الحب والتفاهم ما بيننا من الحمية والنضوج بحيث لا يمكن لغيابي حين أعود أن يمحو ذكرى الأيام القليلة التي عرف فيها أحدنا الآخر..

رحب بأختي بتلك اللهفة الطبيعية التي تحببه الى القلوب، وسألها عن دراستها ونشاطها والمواضيع التي تحبها، وانطلقت الفتاة الخجولة تجيبه دون أن يعتريها الإرتباك كشأنها مع الغرباء، وابتسمت وقلت لنفسي: "من الأفضل أن لا تسيطر العاطفة على لقائنا، سأكون أعمق فهما له في إطار إجتماعي".

قال ضاحكا ونحن نجلس في مكاننا المعتاد خلف الجناح على الرابية المشرفة.

-لنكن صريحين، كم تريدين مقدّما؟

-ان مقدّمي غال جدا!

وبان القلق في وجهه، ولكن ابتسامته الرحبة لم تفارق شفتيه:

-"انني أفعل ما تريدين!"

ضحكت وقلت بهدوء: "ان مقدّمي هو المقدم عفيف!"

نظر الي وفي عينيه دفقة السعادة والحب والإعجاب، وتناول يدي وضمها برفق بين يديه ثم ضغطها بامتنان وقال باسما: "والمؤخر؟"

-لا تهن حبنا!

-ولكن هذه الأمور طبيعية جدا! قلت:

-أي شيء أعطيك اياه ولا تهبني اياه في المقابل؟ انني أخجل أن تذكر هذه الأمور، وأشعر كأنني أبيع نفسي في صفقة.. صمت قليلا وقال:

-لماذا أخفي عنك وضعي؟ انني لا أملك شيئا، وأتألم أنني لم أفكر بمثل هذا اليوم.. ضحكت وقلت:

-انني اذن أكثر منك ثراء، فمعي ألف ليرة..

حدّثته كيف أخفيت أمرها هذا العام لأنشر الكتاب، وضحكنا طويلا..

-متى تحبين أن نتزوج؟

-ماذا ترى أنت؟

-أترك الأمر لك..

-بعد عام أكون قد جهزت ثيابي.. وتكون أنت قد جهزت الأثاث واستأجرت بيتا..

نظر الي طويلا وقال معاتبا: "أتحبين أن نضيّع عاما من عمرنا؟ عاما طويلا باثني عشر شهرا، أي بثلاثمائة وخمس وستين يوما!"

ولمست لهجته المخلصة أعماق قلبي، وأحسست بدفقة ساخنة تغمر روحي وتخضل عيني وأنا أتخيل كم ستكون سعادتي قربه، ما أحمقني وأنا أبحث عن السعادة في لباس وأثاث! ما أحمقني وأنا أطيل أمد الخطوبة فأسمح للناس أن

يحفروا أخاديد من الأقاويل بيني وبينه!.. ان الخطوبة الطويلة طالما كانت مرتعا للسوس ينخر فيها الحياة، وسأكون بعيدة عنه!

أردف وهو يستشف ما يدور في خلدي:

-ستشترين الأثاث بنفسك مع الأيام بما يلائم ذوقك، ماذا أفهم أنا بهذه المشاكل؟

-كما تحب..

ضغط يدي اللتين كان يحتويهما بين يديه بامتنان، كانت رفيقة تتشاغل عنا بالنظر الى الأسهم النارية، ولكنها تسمع حديثنا بوضوح، فشدّ ضفيرتها معابثا، وقال ضاحكا: "لست أنا، انها أختك!"..

وضحكنا جميعا فأردف:

-اشهدي يا رفيقة! قلت لأختك بأن لي عينا لا أرى بها جيدا وأذنا لا أسمع بها جيدا، وانني شارفت على الأربعين، ولكنها بالرغم من كل هذا تريد أن تتزوجني!..

* * *